الدنيا أزمان

الأستاذ شفيق جبري

في صفحةٍ خالدةٍ أشرت اليها مرّة في هذه المجلّة يقول أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريّا المقيم :

« وهل الدنيا الا ّ أزمان ، ولكل زمان منها رجال ، وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة الا ّ خطرات الأوهام ونتائج العقول ، ومن قصر الآداب على زمانٍ معلوم ، ووقفها على وقت محدود ... »

خطر ببالي هذا القول مرّة ثانية ً وأنا أطالع كتاب : أمراء البيان ، للأستاذ الرئيس محمد كرد علي ، رحمه الله أوسع رحمة ، ففي ترجمته لعبد الحميد الكاتب أشار الى رسالةٍ في الفتنة لهذا الكاتب العظيم ، فقد كانت البلاد على نحو ما ذكره الأستاذ في آخر تدوينه للرسالة تموج بالفتن أواخر عهد الخليفة مروان بن محمد الأموي ، وأن عبد الحميد يريد بتأثير قلمه أن ينزع أهل الأقطار عن التردّي في مهالكها ، ولكم كتب من مثلها منذ نادى أهل خراسان بشعار العبّاسيين الى آخر ما قاله في هذا الباب ممّا يتعلّق بالإعراب عن بعد نظر عبد الحميد في السياسة وعن شدّة غيرته على سلطان بني أميّة .

لم أستشهد بما استشهدت به من كلام ابن فارس الا ّ للدلالة على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

أطوار الأزمان ، وقد تدخل هذه الأطوار في كل وجهٍ من وجوه الحياة ، في العلوم والسياسة والتفكير والأدب ونحو ذلك ، الا ّ أن الذي يهمّنا في هذا المقال انما هو شيء من أطوار التفكير والأدب ، فقد نجد في بعض الأحيان أن التفكير في عصرٍ ماضٍ أخصب من التفكير في عصرٍ حاضرٍ ، وأن الأدب في زمنٍ متقدم أبلغ من الأدب في زمنٍ متأخر ، على أن الذي يجب أن يكون انما هو تقدم التفكير والأدب بتقدم الزمن ، فما يصحّ أن يكون تفكيرنا أقلّ خصباً من التفكير في الماضي ، وأن يكون أدبنا في عصرنا أقلّ بلاغة من الأدب في عصرٍ سابق .

فلننتقل الآن الى رسالة عبد الحميد الكاتب لعلّنا نجد فيها ما يثبت لنا أن بعض الأدب والتفكير في زمننا لم يبلغ ما بلغه في عصر عبد الحميد ، لو تكلفنا تحليل ما خاض فيه عبد الحميد في رسالته من ذكر الأمور التي تجلبها الفتنة لتبيّن لنا أنه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة الاّ أحصاها ، فقد أشار في خلال رسالته الى طاعة الأئمة والمناصحة على أمورهم والتسليم لما أمروا به وما الأئمة في هذه الإشارة على ما أظن الاّ رجال الحكومة المحافظون على القانون في لغة عصرنا . لم يغفل عبد الحميد عن ذكر ما يجب على الأمة من طاعة رجال الحكومة لما يتمّ على أيديهم من مختلف النعم كما أنه لم يغفل عن ذكر ما ينشأ عن الخلاف لهم والمعصية عليهم من ذهاب هذه النعم وغير ذلك من عواقب هذا الخلاف وهذه المعصية ، ولا ريب في أن عبد الحميد لم يحضّ على طاعة الأئمة الاّ لاعتقاده أنهم يجب أن يكونوا من أهل الصلاح والاستقامة ، وبعد هذا انتقل الى بيان ما يحدث في الفتنة من مضارّ مادّية ومعنوية ، ثم فصّل ما يراق في الفتنة من دماءٍ وما يقع من يتم الأطفال وترميل

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
الجمهورية العربية السورية مجمع اللغة العربية

النساء وما يحدث من الضغائن والشحناء في قلوب رجال الأمة وما يخرب من بلاد فضلاً عن شماتة عـدوٍّ أو منافق ، وفرقة أهواءٍ ، وتقطّع أرحـــام .

قد تضيع بلاغة هذه الرسالة اذا جزّأتها هذه التجزئة أو لخّصتها هذا التلخيص فلا غنى عن الرجوع اليها وملء الذهن من قراءتها والتدقيق في كل مقطع من مقاطعها .

ولكن ما الذي حملني على الاستشهاد بهذه الرسالة ، إنني لا أرمي إلى الإفصاح عن بلاغة صاحبها فهذه البلاغة لا تحتاج إلى الإفصاح عنها ، واني لا أقصد احصاء الأفكار التي وردت فيها ، فان هذه الأفكار قد حوت كل ما يحدث عادةً في الفتن ، ولكنني قصدت أمرا واحدا لا غير ، فاذا كان لكل زمنٍ أدب وتفكير خاص فقد يحدث أن أدب عصرٍ متقدم أعلى من أدب عصرٍ متأخرٍ ، وان التفكير في وقت ماضٍ أفضل من التفكير في وقت حاضرٍ ، فأدب عبد الحميد في رسالة الفتنة وقد مضى عليه زمن طويل بعيد عن أن يقرب منه أدب في زمننا ، وتفكيره في توضيح عواقب الفتنة لم نألف تفكيراً مثله في فتنة من فتن أيّامنا ، فاذا قابلنا بين رسالته في أيّامه وبين خطبة أو مقال في فتنة يومنا هذا تبيَّن لنا الفرق بين زمنٍ وزمنٍ من حيث التفكير ومن حيث الأدب .

أمّا الأدب فما نظن أنّا نستطيع أن نجاري كاتباً من طبقة عبد الحميد في البلاغة ، فاذا كان الأدب يتغير من زمنٍ الى زمنٍ فهل نستطيع أن نقول ان أدبنا في هذا العصر أبلغ من أدب عبد الحميد في عصره ، واذا أردنا أن ننبّه على عواقب الفتن في يومنا هذا فهل ينقاد الينا البيان انقياده الى عبد الحميد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

غير انني لا أهتمّ بالبيان وحده وانما أهتمّ أيضا بسعة التفكير ، فالزمان الذي عاش فيه عبد الحميد غير زماننا ، فان الحياة تختلف من عصرٍ الى عصرٍ ، فاذا كانت العقول أيّام عبد الحميد تعمل فيها هذه الأفكار المديدة التي أتى عليها في رسالته فإن العقول في أيّامنا قد تنقبض عن التبسط في التفكير ، فاذا فرضنا أن فتنة وقعت في بلدٍ من بلاد العرب، قريب أو بعيد وأراد رجال الحكومة أن ينبّهوا على عواقبها الوخيمة وأن يحثّوا الناس على الألفة ونحوها فان تفكيرهم يقتصر في بياناتهم على أمثال هذه العبارات : المصلحة الوطنية ، الضمير الوطني وغير ذلك من العبارات المألوفة في لغتهم ، أمّا العبارات التي ذكرها عبد الحميد في رسالته وأما الأفكار التي تصوّرها هذه العبارات فنكاد لا نجد لها أثراً واذا وجدنا لها أثراً فما هو مبلغ هذا الأثر ، فهل نقول في بياناتنا في فتنة من الفتن :

« وطفل قد يتّم من أبيه ، ومذلّة قد دخلت عليه ، ونعمة قد زالت عنه ، ووحشةٍ قد أحدثت ضغائن في القلوب قد نشبت ، وشحناء قد ظهرت ، وأوتارٍ قد بقيت ، وعداوة في الأنفس قد استقرّت ، وخوف قد ظهر ، وسبلٍ قد قطعت ، وامرأة قد أرملت ، وصبيّة قد يتّمت ، وبلاد عامرة قد خربت ، وعدد قد نقص ، وبلايا قد عمّت وشملت ، وعدوٌ قد شمت .. » الى آخر ما جاء في هذه المقطع من الرسالة البليغة.

كلّ ما أحرص على ذكره في هذا المقام أن لكل زمنٍ تفكيراً وأدبا يوضّح هذا التفكير ، وقد تكثر المشاغل في زمنٍ من الأزمان وتتسع آفاق الحياة فيقتضي هذا كله ايجازاً في التعبير ، ولكن هذا الايجاز بعيد عن أن يصوّر فتنة من الفتن في حقيقة صورها وأن يحمل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net
مجمع اللغة العربية الجمهورية العربية السورية

الناس على تجنّب الفتن بشيء من سحر البيان ، فقد ينتقل الأدب من وجه إلى وجه في اختلاف العصور وقد يتحول التفكير عن أفق إلى أفق . ولكن من لوازم ما نسميه : التطور ، أن يكون هذا الانتقال وهذا التحوّل أرفع شأناً ممّا كانا عليه في الماضي .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net
الجمهورية العربية السورية مجمع اللغة العربية